

أوهام التاريخ اليهودي

جودت السعد

عمان: الأهلية للنشر والتوزيع،

١٩٩٨. ٣١١ صفحة.

ما زالت أساطير التوراة تشكل مادة طيبة للباحثين والدارسين. ومما لا شك فيه أن غياب السند التاريخي والوثائق لهذه الأساطير يثير العقول، ويهيج الأخيلة، ويفتح الآفاق اللامحدودة كلها أمام الباحثين، فتعددت وتضاربت الآراء والنظريات، لكنها اتفقت على أن ما جاءت به التوراة بشأن الوجود العبري في مصر، ورحلة الخروج الجماعي، وإقامة مملكتي إسرائيل في أورشليم والسامرة، لا يمكن أن يكون صحيحاً تماماً. ومن جملة الآراء التي أمكننا الاطلاع عليها ما يلي:

أولاً: إن العبرانيين ليسوا أكثر من مجموعة من بقايا الهكسوس الذين اجتاحتها مصر، وحكموها مدة تتجاوز القرنين.

ثانياً: إن العبرانيين مجموعة من القبائل التي استوطنت مصر لأسباب اقتصادية، وأن هذه القبائل كانت تدين لآلهة الكنعانيين، فتحج سنوياً إلى بعل صفون وتقدم له القرابين والأضاحي. فقام موسى، أحد كهنة أخناتون، بعد انهيار تلك الديانة التوحيدية وملاحقة كهنتها، باستغلال هذه القبائل وبتسخيرها لتحقيق حلم شخصي يتمثل في إقامة ملك بديل من مجده الضائع.

ثالثاً: إن اليهود ليسوا من الهكسوس، وإنما كان لهم دور كبير في تحرير مصر من حكم الهكسوس المستجدين.

رابعاً: إن القبائل التي اجتاحت فلسطين هي ما اصطلح على تسميتها قبائل العابيرو، التي كانت تمتهين الغزو في المنطقة، ونجحت أخيراً في تحقيق شيء من الاستقرار. كما أنها لا تمت إلى مصر بأي صلة من قريب أو بعيد.

وفي هذا السياق يأتي كتاب الباحث جودت السعد، "أوهام التاريخ اليهودي". يتألف الكتاب من تسعة فصول، تغطي تاريخياً الفترة منذ الهجرات البشرية الأولى حتى مسألة اليهود المعاصرين.. واعتمد المؤلف على ما تم اكتشافه من لُقى ومدونات وآثار، وإشارات متفرقة من هنا وهناك ليخلص في المحصلة إلى عدد من الاستنتاجات، ويردّ ما جاء في التوراة إلى أصوله.

ويمكن القول إن ما هو أكثر أهمية من سواه في هذا الكتاب، هو رأي المؤلف القائل إن الموسويين كانوا فصيلاً من جيش مصر الفرعونية، تم إرساله إلى فلسطين لإخضاع بعض الولاة والحكام الذين تمردوا على الفرعون، باعتبار أن فلسطين كان خاضعة للسيطرة المصرية في تلك الحقبة.

استعان المؤلف برسائل تل العمارنة التي كان عدد من حكام المدن الفلسطينية بعث بها إلى فرعون مصر طلباً للنجدة والعون في مواجهة الخطر المتزايد لجماعات العابيرو، ليقول إن المدن التي ذكرت التوراة أن الموسويين دمروها كانت تخضع لسلطة العابيرو؛ وهذا يعني أن اليهود لا يمكن أن يكونوا هم العابيرو، حتى وإن كانت الصلة بين العابيرو والعبريين كبيرة!!

وكي ينفي علاقة الموسويين بالهكسوس، يلجأ المؤلف إلى حسابات زمنية ليكتشف أن هنالك فجوة زمنية بين الهكسوس والعبرانيين في مصر! ويدعم المؤلف الاستنتاجين بما يلي:

أولاً: تشير اللقى والآثار المكتشفة في بيان وجيزر ولجيش وتعنك وأورشليم وشكيم إلى وجود مصري قوي في هذه الفترة.

ثانياً: يذكر التاريخ المصري وغير المصري وجود عداء كبير بين الفلسطينيين والفرعنة.

ثالثاً: إن المدن التي تذكرها رسائل تل العمارنة أنها خابيرو، أو تقدم المساعدات إلى الخابيرة هي المدن نفسها التي تذكر التوراة أن الموسويين أو الإسرائيليين خربوها مثل: جيزر؛ تعنك؛ لجيش؛ القدس؛ شكيم؛ عاي. أما المدن التي تذكر التوراة أن الموسويين دمروها ولم يؤت إلى ذكرها في رسائل تل العمارنة، فيبدو أنها كانت عابيرو جماهيرياً وحكاماً، لذا لم يرسل هؤلاء الرسائل إلى الفرعون، وقد استهدفت هذه المدن أيضاً ومنها: أريحا وجدةون وديبر.

من الواضح أن المؤلف لا يشذ عن كثيرين اعتبروا أن موسى ما هو إلا قائد عسكري من قادة فرعون، وأنه سبق له أن شارك في أكثر من حملة عسكرية إلى هذه المنطقة أو قادها. لكن السؤال الذي يلح أمام هذه الآراء يظل قائماً، وهو: إذا كان الموسويون فصيلاً عسكرياً من الجيش المصري، فلماذا لم تُعمم الديانة المصرية في فلسطين؟ ولماذا ظلت معابد بعل وعشترون الكنعانية منتشرة في فلسطين والأردن وسورية، حتى في إبان العصر الذهبي لمملكة سليمان الذي أقام المعابد لبعل وعشتروت، واتخذ له نساء من أتباع الديانات الكنعانية؟

وفي الوقت الذي يشير فيه المؤلف إلى أن التوراة كُتبت في عهد السبي البابلي، وأن الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى ليست إلا تاريخاً وهمياً تم اعتراعه لأسباب سيكولوجية ولأسباب تاريخية، لربط الحلقات بعضها ببعض، فإن المؤلف نفسه يعتمد التوراة أحياناً مرجعاً تاريخياً لينفي علاقة الموسويين بالعابريو، حين يقول إن المدن التي دمرها الموسويون - كما ورد في التوراة - كانت للعابريو! إن وجود بعض اللقى التي تشير إلى وجود مصري قوي في تلك الفترة، لا يعني أن الموسويين فصّل عسكري من جيش فرعون.. فمن المعروف تاريخياً الآن أن فلسطين كانت تتجاذبها عدة قوى خارجية تحيط بها، ونظراً إلى أن مملكتي يهوذا وإسرائيل كانتا على درجة كبيرة من الضعف، فقد ظلتا مناطق نفوذ لتلك القوى.. المصرية والأشورية والبابلية والآرامية، وكانت من الطبيعي أن يتم العثور على بعض آثار تلك القوى في بعض المدن الفلسطينية.. ولو كان الموسويون فصّلاً عسكرياً فرعونياً لما كانت المدونات التي تعود إلى تلك الفترة حكراً على اللغتين الآرامية والكنعانية، في ظل غياب كامل للغة المصرية.

لقد أشارت المدونات الآرامية في سورية إلى وجود مملكتين يهوديتين في يهوذا والسامرة، وتوصل الباحث السوري فراس السواح، في كتابه "آرام دمشق وإسرائيل"، إلى أن العبريين لم يحكموا هاتين المملكتين قبل سنة ٧٥٠ ق.م. كما أكد بعض المدونات وجود صراع دام بين هاتين المملكتين.. فهل يُعقل أن ينقسم الفصيل المصري العسكري ويتحول إلى قوتين متصارعتين ومتحاربتين على الدوام؟ وهل يُعقل أن يسمح الفرعون بذلك؟

إن ما نراه أقرب إلى المنطق يعتمد على ما أورده المؤلف جودت السعد نفسه.. فالتوراة كُتبت في السبي البابلي بلا شك، والأسفار الأولى تم اختراعها لتدعيم مقولة الأمة العبرية، من خلال ارتباطها بتاريخ مقدس.. وهذا يعني أن خيال الكتبة المسيبيين بلغ ذروته باختراعه شخصيات وحكايات ووقائع لا يمكن التحقق منها.. وسواء أكان الموسويون فصّلاً عسكرياً فرعونياً، أن مجموعة من القبائل العبرية التي هاجرت إلى مصر طلباً للرزق، فمن غير المعقول أن تتنحى اللغة المصرية حينها لمصلحة اللغة الكنعانية، كما من غير المعقول أن تستعير هذه المجموعات آلهة الأمم الأخرى وتدعيها لنفسها. وبناء عليه، فإننا نشاطر المؤلف رأيه القائل إن العابريو ليسوا عناصر أجنبية، وإنما هم من "نبات الأرض والصحراء"، وإن ظاهرة العابريو تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة بلاد الشام.. وهذا يعني - كما نرى - أن

قبائل العابيرو قامت باحتلال المدن الفلسطينية وتمكنت، في مرحلة الانتقال من الرعوية إلى الزراعة، من تشكيل وحدة فيما بينها، لكن تلك الوحدة سرعان ما انكسرت نظراً إلى غياب تاريخ مشترك وهوية ثقافية مشتركة ومرجع ديني مشترك. تؤكد التوراة نفسها أن يهوه لم يسد مملكتي يهوذا وإسرائيل، وأن الملوك الأوائل والشعب عملوا الشر في عيني الرب لأنهم أقاموا معابد لبعل وعشتروت، وتزوجوا مع الأمم الأخرى، وقد شمل ذلك سليمان!

لكن المؤلف يقول إن الديانة اليهودية تمتّ بصلة إلى ديانة الرافدين أكثر مما تمتّ إلى الديانة الكنعانية، وإن الأفكار التوراتية تعتمد على التماس مع التاريخ البابلي. ثم يورد في مواقع أخرى أن آلهة الأسفار الخمسة الأولى مأخوذة من الكنعانيين.. وأن اليهود استعملوا بعل ويهوه بالمفهوم نفسه فيقول: "وفي ألواح إبلا يُستعمل إيل مرادفاً ليهوه."

وعلى الرغم من تذرع المؤلف ببلبلة كتبة التوراة في السبي البابلي، وبارتباكهم، فإن ذلك لا يشكل مبرراً كافياً يجعل المؤلف في منأى عن الدراسة والبحث والمقارنة لتشكيل رأي محدد في هذه المسألة، لا الاكتفاء باستشهادات من هنا وهناك. ولعل باحثين آخرين كانوا أكثر جرأة في هذا السياق، مثل فراس السواح وشفيق مقار وكمال الصليبي وسيد القمني..

إن البحث في أصول الديانات البدائية يشير إلى أن تموز هو الأصل الطالع من فجر التاريخ السومري، وأن التموزية انتشرت ووصلت بعدة وسائل إلى مصر وسورية وفلسطين، لكنها كيفت نفسها في هذه المناطق وفق التطور الطبيعي للمجتمعات الجديدة.. وإذا كانت التموزية تعني مزاحمة النظام الأبوي للنظام الأمومي ومشاركة له، فإن الإيلية في بلاد الشام مثلت انقلاباً شاملاً، وتحولاً مطلقاً من الأمومية إلى الذكورية.. وهذا ما يفسر سطوة إيل على الأمم جميعاً، على الرغم من وجود آلهة أدنى أو خاصة بكل قبيلة.

في هذا المناخ تمكن الموسويون، أو ربما العابيرو، من حكم بعض المدن الفلسطينية. وكانت مقتلهم الرئيسي يتمثل في إحلال يهوه ذلك الإله القبلي محل إيل، أي أنهم حاولوا ترقية إله قبلي خاص، وتعميمه ليصبح إلهاً عاماً، فسلكوا في ذلك مسالك الحرب، الأمر الذي أدى إلى تدمير سلطتهم مراراً وتكراراً.. ويبدو أن السبي البابلي علمهم الدرس الحقيقي وهو الاكتفاء بيهوه كإله قبلي خاص كغيرهم من الأمم الأخرى.

وعلى الرغم مما سبق فإننا نسجل لجودت السعد حرصه البالغ على قراءة التاريخ بموضوعية وحياد، ونسجل له قدرته على التعامل الدقيق مع المسألة اللغوية، الأمر الذي يجعل من كتابه مرجعاً على قدر كبير من الأهمية والغنى.

يوسف ضميره

عمّان/ الأردن

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>